مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد
السابع عشر
2000

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة - تصدر سنويا

1430 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 2000 افرنجي

التعدُّدُ اللّغويُّ ونتائجُهُ في الفوارقِ الثقافيّةِ والقبليّةِ في إفريقيا

نحو اندماج لغويّ لإفريقيا الغد

الدكتور أحمد تيجاني جالو
كليّة الآداب والعُلوم الإنسانيّة / السنغال

إن مشكلة اللغة في القارة الإفريقية مشكلة شائكة، نتيجة وجود كثير من اللغات المحلية ذات نطاق محدود إلى جانب لغات أخرى ناقلة تستخدم في الاتصالات بين شعوب ذات لغات أمٍّ مختلفة: كاللغة العربية والأمهرية والسواحلية، بالإضافة إلى وجود هذه اللغات المحلية، مع لغات أوروبية: كالفرنسية والإنكليزية والإسبانية والبرتغالية في القارة الإفريقية.

إن هذا الوضع وضع خطير جداً؛ لأنه جعل القارة الإفريقية منقسمة، تكثر فيها المذاهب والطوائف والتكتلات، بحسب الموقع الجغرافي أو اللغة أو الدين.

والمؤسف حقاً، أن كل جزء أو تكتل يحسب نفسه فيها أمة بأسرها، ويعد

لنفسه من مستلزمات أو من مقومات الأمة ما يجعل كيانه يصمد. وينتج عن ذلك انقسام القارة إلى مجموعات هي: مجموعة إفريقيا الغربية، حيث تسود لغات البولار والماندينكي واليوروبا والهوسا، ومجموعة وسط وشرق إفريقيا، حيث تسود لغات الأمهرية والسواحلية. ومجموعة جنوب إفريقيا، حيث تسود لغات أخرى من أسر لغات البانتو. أضف إلى ذلك وجود اللغة العربية كلغة أم في شمال إفريقية من ناحية، ولغة دين في إفريقيا جنوب الصحراء منذ أقدم العصور. وكل ذلك يُتَوِّجُهُ انقسام آخر نتيجة الاستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية وما يترتب على ذلك من وجود كتلة دول تسمى «بالدول الناطقة بالفرنسية» وأخرى «ناطقة بالإنكليزية» «والإسبانية» «والبرتغالية» الخ. . .

إنه من نافلة القول أن نشير إلى ما يجب أن ينتج عن هذا الموقف، من فروق واختلافات ثقافية أو اجتماعية بين المجموعات العرقية تبعاً لاختلاف لغاتها. ولا يعني ذلك أن تعدد اللغات في حد ذاته يشكل عقبة كأداء في سبيل الاندماج الإفريقي إذا أحسنا التصرف. بل إن التعدد والتنوع في اللغات ثروة هائلة لإفريقيا؛ لأنه توجد وراء كل لغة حضارة أو ثقافة لمجموعة عرقية. فالخالق هو الذي شاء هذا التنوع والتعدد في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ . . .﴾[1].

إن التحدي الذي يجب أن تواجهه إفريقيا في مسألة تعدد اللغات المحلية واللغات الناقلة؛ هو محاولة التوفيق بين الماضي والحاضر، وبين الأصالة والمعاصرة، ولا يعقل أن تَتَقَوْقَعَ مع إفريقيا، وتنكفء على نفسها في عصر العولمة، والحال أن كل الأمم والقارات الأخرى تكافح جاهدة نحو الاندماج في تنظيم شؤونها في الاتصالات التي تعتبر اللغة الأداة الأولى والأساسية فيها.

إن التحدي الذي ينتظر إفريقيا هو أن تتمكن من الفهم بشكل واع ومنظم، بأنه يجب عليها النجاح في تحديد المكانة التي يجب أن تحتلها هذه اللغات المحلية، إلى جانب اللغات الناقلة الأخرى، وتحدد دور ومكانة كل من هذه

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

اللغات الناقلة الكبرى، لما يخدم الاندماج الإفريقي في القرن القادم.

ويمكن أن نأخذ مثلاً لدول «إفريقيا جنوب الصحراء»، لنصور على ضوء المعطيات التاريخية مسألة تجاوز اللغات الناقلة، مع اللغات المحلية، أي: تجاوز اللغة العربية مع اللغات الإفريقية في مناطق وطبقات وبيئات اجتماعية وثقافية مختلفة، وكيف تمكنت اللغة العربية من أن تلعب دوراً بارزاً كان بمنزلة عامل توحيد بين المجتمعات الإفريقية في تلك الفترة. ولا تزال اللغة العربية تلعب ذلك الدور في بعض الأوساط الاجتماعية في إفريقيا إلى الآن، ثم نشير إلى ذلك الدور الذي تلعبه الآن بعض اللغات الأوروبية منذ دخول الاستعمار هذه القارة وحتى بعد سنوات الاستقلال.

اللغة العربية عامل موحد للقبائل الدائنة بالإسلام وأثر ذلك في اللغة والمجتمع الإفريقي

سيكون من العسير الحديث عن مكانة اللغة العربية في دول إفريقيا جنوب الصحراء، دون أن نتطرق إلى دخول الإسلام في هذه المنطقة التي كان يطلق عليها الكتّاب والرحالة العرب عبارة «بلاد السودان». وهناك نقاش وجدل حول ارتباط دخول اللغة العربية في هذه البلاد بدخول الإسلام. ويرى بعض المؤرخين أن الإسلام بدأ ينتشر في إفريقيا منذ فتح مصر عام 640م بقيادة عمرو بن العاص وشروع الجيوش الإسلامية بعده في اقتحام «بلاد السودان».

ويرجع (عُمَرْ كَنْ) مثلاً ظهور بدايات الإسلام في السنغال وإفريقيا جنوب الصحراء أي «بلاد السودان» باعتناق قبائل البولار هذا الدين، على أيدي شيوخ من قبيلة سُوِنِنكِي في القرن التاسع أو العاشر الميلاديين على الأقل[2].

وبناءً على هذه الرواية فإن تعاليم الإسلام وصلت إلى هذه البلاد قبل عهد المرابطين، غير أن هناك روايةً أخرى تقول: إن المرابطين هم أول من أدخل الإسلام لدى قبائل البولار. فنحن لا يهمنا من هذا الاختلاف معرفة من أدخل

(2) KANE Oumar, 1986: pp 386-388.

الإسلام في إفريقيا، بقدر ما يهمنا تاريخ دخول الإسلام فيها. وذلك لأن معرفة هذا التاريخ ستقودنا إلى جدل آخر، هو هل دخلت اللغة العربية إفريقيا بدخول الإسلام أو بعده؟ أم دخلت قبله عن طريق التجارة؟ وهذا الجدل لا يهمنا، بقدر ما يهمنا وجود اللغة العربية في إفريقيا في حد ذاته. ويضاف إلى ذلك أن الروايتين تذكران نفس قبائل البولار، أو «التكرور» في دخول الإسلام. وكلتا الروايتين تقعان في بؤرة زمنية واحدة، هي القرن التاسع، أو العاشر الميلاديين. ولا غرابة إذاً أن يسود الغموض هذه الحقبة من التاريخ، بسبب عدم وجود مصادر مكتوبة تعالج هذه الأحداث، حتى نتمكن من ضبط تاريخ دخول الإسلام في هذه المناطق. غير أننا يمكن أن نرجع إلى الرحالة البكري (1028 ـ 1094) في كتابه «المسالك والممالك» لأنه من أقدم المؤلفات المكتوبة بالعربية، التي تعالج هذا الموضوع، حيث يقول عن بلاد السودان:

«. . . وأقرب بلاد السودان منهم صنغانة[3] بين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام. ومدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة على النيل، مدينة «تكرور» أهلها سودان. . . من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم صنم حتى وليهم وارجابي بن رابين فأسلم، وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها، وحققوا بصائرهم فيها وتوفي وارجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربع مائة (432هـ/ 1040). فأهل تكرور اليوم مسلمون. (البكري 122).

إن هذا النص الذي يصف إفريقيا أو بلاد السودان قبل المرابطين لذو أهمية كبرى حيث إنه يدلنا على:

1 ـ وصف بلاد السودان، وأسماء بعض مناطقها صنغانة مثلاً، وأسماء من يقطنها (تكرور).

2 ـ اسم من يملك فيها «وارجابي» وتاريخ وفاته.

3 ـ يدلنا على أن بعض أجزاء هذه المملكة تقع على ضفتي نهر السنغال بناءً

---

(3) Sénégal selon certaines sources ou interprétations

تحريف لاسم السنغال اليوم بناء على بعض المصادر أو الروايات الشفهية.

على أن صنغانة هي التي اشتقت منها السنغال على إحدى الروايات. إذا سلمنا أن صنغانة هي أصل اسم نهر السنغال.

4 ـ اعتناق الملك الإسلام وحمل رعاياه على شرائعه.

إن هذه المعطيات التاريخية تنير لنا الطريق في فهم بعض الحقائق، وتجعل أقدامنا ثابتة في أرضية محددة في المكان والزمان. ومع ذلك سنسلم جدلاً أن انتشار اللغة العربية في «بلاد السودان» ذو علاقة وثيقة بدخول الإسلام دون الخوض في جدلية السبب، أو التلازم أو الأسبقية بينهما، وذلك لنفرغ من وصف ذلك المجتمع ولغاته حتى نتمكن من رؤية دور اللغة العربية فيها، ذلك الدور الذي كان عامل توحيد خَلَقَ مجتمعاً حطم فيها عرى القبلية، وجعل شعوباً وقبائل متعددة الثقافات واللغات تتعارف وتنصهر في بوتقة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

إن هذا البعد الاجتماعي الذي خلقته اللغة العربية لا يمكن فهم مظاهره في الوسط الإفريقي، وما نتج عنه من تغيرات وتحولات اجتماعية واقتصادية، إلا إذا فهمنا دور العامل أو الوازع الديني، وما يترتب عنه من دراسة اللغة العربية بوصفها الوعاء الأساسي للدين الإسلامي الحنيف، والوسيلة العلمية والعملية لمعرفة تعاليمه وعلومه التجريبية والتطبيقية. إن العامل المشترك في هذا المجال أو إن ما يميز الأديان السماوية أنها تأتي للتوحيد، بمعنى أنها تأتي لتجمع الناس في اعتقاد وجود إله واحد، بمعنى أنه يهدف إلى خلق مجتمع من أناس ذوي أصول مختلفة، يقبل العيش كأمة في محيط جغرافي معين، ويخضع لقوانين موحدة.

أثر هذا التوحيد على المستوى الاجتماعي واللغوي

إن هذا المثل الأعلى قد أدى إلى خلق مجتمع جديد، يتجاوز القبلية وتنصهر فيه كل الحساسيات الأيدلوجية والثقافية، فنشأ مجتمع جديد وفلسفة جديدة على أنقاض الممالك ونظم الحكم التي كانت سائدة آنذاك.

وبناءً على ما تذكره كتب التاريخ فإن الجزء الأكبر من دول إفريقيا جنوب الصحراء كانت تقع تحت إمرة (سُوننكِي غانا) ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر، ثم بعد ذلك جاء دور إمبراطورية (ماندينكي مالي) حتى القرن السادس عشر[4]، هذا بالإضافة إلى بعض الممالك والدويلات الأخرى التي كانت موجودة آنذاك.

وحتى يتمكن المجتمع الجديد من الاستمرار في البقاء، وحتى يؤثر أكثر مما يتأثر كان عليه إيجاد سبل ووسائل لذلك، فنشأت حركات كثيرة أهمها ما يعرف بحركة (أَلْمَامِي) وهو تحريف لكلمة الأئمة، وهي حركة قام بها رجال الدين المسلمون في منطقة حوض السنغال للإطاحة بآخر ملك الوثنيين المعروف سَاتِجِي Satigi في عام 1776. وإقامة ما يعرف «بنظام الأئمة» أو «نظام المشايخ» الذي كان يحاول أن يحكم على نمط أسس الدولة الإسلامية وتعاليمها، إلى حين مجيء الاستعمار الأوربي في القارة الإفريقية. وقد كانت حركة (الحاج عمر طال الفوتي) (1864 ـ 1797) الدينية التي دامت ما بين 1854 ـ 1860) والتي وحدت منطقة ضفتي نهر السنغال، وبسطت سيطرتها على منطقة «الغديماخا»، وكانت الحروب التي خاضها في السنغال وفي مالي وجهوده لإقامة إمبراطورية إسلامية في غرب إفريقيا، وكذلك ثورة (عثمان بن محمد فودي) 1754 ـ 1817 في نيجيريا امتداداً لهذه الحركة الدينية في إفريقيا.

كان لزاماً على هؤلاء الشيوخ الذين يقودون هذه الحركة الدينية أن يجدوا وسيلة اتصال بينهم وبين أتباع الدين الجديد، فاختاروا اللغة العربية لغة للحكم والإدارة، ولغة للاتصال مع الجماهير، على الرغم من كل الصعوبات والعراقيل التي كانوا يلاقونها هم وأتباعهم في سبيل تعلمها. ومع ذلك لم يتخلوا عن اللغات الإفريقية في تخاطبهم اليومي فيما بينهم، أو بينهم وبين أتباعهم. وزيادة على ذلك فقد نشأ تزاوج ثقافي بين اللغة العربية واللغات الإفريقية، حيث بدأت اللغات الإفريقية تكتب بالحروف العربية، وظلت كذلك لمدة قرون عديدة. ولا

(4) Voir Makhtar Diouf: Sénégal les Ethnies et la nation (1998: 40-50).

يزال ذلك باقياً حتى يومنا هذا، ولا يزال الزعماء الدينيون في إفريقيا اليوم يتوجهون إلى أتباعهم بخطب تلقى باللغة العربية. ولا يزال الكثير من المراسلات في الأوساط التقليدية والشعبية في إفريقيا يتم باللغة العربية حتى الآن.

وقد نشأ عن هذا الوضع تأثير اللغة العربية على اللغات الإفريقية من حيث المبنى والمعنى معاً، في كثير من مظاهر الحياة اليومية، حيث غزت المفردات العربية هذه اللغات، واقترضت هذه من العربية مفردات كثيرة، إما مع الاحتفاظ بالكلمة كتابة، ونطقاً كما وردت في اللغة، وإما مع تغيير بسيط أو كبير في النطق، وفي بعض الأحيان مع إعطاء هذه الكلمة معنى آخر مغايراً لمعناه في اللغة العربية التي اقترضت منها الكلمة.

الاقتراض اللغوي هل هو ظاهرة إيجابية أو سلبية؟

قبل أن نصور بعض الأمثلة في اقتراض اللغات الإفريقية من العربية نتساءل هل الاقتراض ظاهرة إيجابية أو سلبية؟

يرى البعض أو يرى المتشائمون أن الاقتراض عملية سلبية؛ لأنه يؤدي إلى نوع من طمس الهوية الوطنية من خلال اقتراض بعض المفردات التي تعبر عن مفهوم ثقافة ما. بينما يرى الآخرون أن الاقتراض ليس إلا عملية تأثر وتأثير، ولذلك فلا يجب أن يفهم منه أنه سلبي. ويتساءل بعض العلماء: لماذا يخاف البعض من عملية الاقتراض؟ لأن الاقتراض نفسه يستعمل تجاوزاً على مفهوم غامض، وهو استعمال لغة معينة، كلمة أو بعضها من مثيلاتها.

ومعنى الاقتراض أن يرد المُقْتَرِضُ الدين الذي أخذه، عوضاً عما أخذ. وليس الأمر كذلك في عملية الاقتراض اللغوي، لأن المقترض لا ينوي أبداً رد الكلمة أو الكلمات التي أخذها من اللغة المقترَضَة منها، ومعنى ذلك: أن متكلمي اللغة المُقْتَرِضَة يجب أن يرحبوا باقتراض الكلمات الجديدة وملاءمتها لتسمية المفاهيم التي لم يكونوا يجدون لها أسماء أو مصطلحات، لكنه خلاف لما يقبله المنطق، فإنه كلما أثرت لغة ما في اللغات الأخرى بنشر أو توزيع تراثها

اللغوي تفاءل متكلمو هذه اللغة المقترضة منها بذلك. وكلما تأثرت لغة ما واقترضت من تراث الآخرين تشاءموا بذلك[5].

ولئن كانت التجارة والتبادل قد ساهما في إدخال اللغة العربية إلى إفريقيا، فإن للدين نصيباً وافراً كذلك في هذا الموضوع. ونظراً لأن العامل الديني كان قوياً لدى من ساهم في إدخال اللغة العربية إلى غرب إفريقيا، فلم يروا أي حرج في ظاهرة الاقتراض من العربية بل إنهم كانوا يرون أن تعلم العربية أو الاقتراض منها أمر ضروري لفهم الدين، أو المفاهيم الجديدة التي أتت بها الثقافة العربية الإسلامية.

وقد اقترضت اللغة الفولانية مثلاً كلمات عديدة من العربية. وهذه الاقتراضات تشمل كل الظواهر أو كل جوانب الحياة اليومية. ويشترك في ذلك مجموعات القبائل الفولانية كافة من المحيط الأطلسي إلى تشاد والكامرون، ويتأكد صدق هذا الزعم، وأهمية وجود الاقتراض الكبير من العربية إلى اللغات الإفريقية، فيما أحصاه الباحث (عمر باه) من كلمات أجنبية غزت اللغة الفولانية في منطقة فوتا تورو، وبلغ مجموع هذه الكلمات 694 كلمة، بما في ذلك 291 كلمة من أصول عربية. بمعنى أن ما يقرب من النصف من هذه الكلمات جاء من اللغة العربية وحدها[6]. ومن الصعب حصر أو إحصاء كل الدوافع التي تحث المتكلم على الاقتراض، ولكننا يمكن أن نذكر من هذه الدوافع على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

الدين والتربية والتعليم:

كلمات: الله، الإسلام، الصحابة، سنة، فرض، نافلة. كلها كلمات تنطق بالفولانية، وفي لغة الولوف بأسمائها العربية مع تحريف بسيط أو كبير في هذه اللغة أو تلك. كما أن مصطلحات: الدواة، والدفتر، واللوح، والتأليف، والطالب، والحرف تستعمل في اللغة الفولانية واللغة الولوفية في السنغال،

---

(5) Voir Walter Heniette: 1997 p: 10-11.

(6) Voir: BA Oumar, 1972, C.L.A.D., Université de Dakar - Sénégal.

وتستعمل كذلك بنفس الأسماء في لغة الهوسا. كما أن لغة الهوسا تستعمل مصطلح القلم بتسميته العربية[7].

وتستعمل كل أو بعض هذه المصطلحات كما هي في العربية مع تحريف بسيط أو كبير في كل من اللغة الفولانية ولغة الهوسا بغرب إفريقيا. وكذلك في لغة الولوف في السنغال. وهذه المصطلحات هي: الركوع، السجود، والكفارة، والدين، والحج، والعمرة، والنافلة، والزكاة الخ...[8].

التجارة والتبادل:

في المعاملات التجارية: نرى أن لغة الهوسا تستعمل مصطلحات: الغش، والأمانة، والحرير، والزعفران، والكافور. وتستعمل كذلك العقود من الأعداد من 20 إلى 90 بتسمياتها العربية[9]. كما أن مصطلحات: الزعفران، والكافور، والعيب. تستعمل بتسمياتها العربية في الفولانية بغرب إفريقيا، وفي الولوفية بالسنغال مع تحريف بسيط في النطق.

السلطة والعدالة:

في اللغة الفولانية واللغة الولوفية في السنغال تستعمل المصطلحات التي تعبر عن السلطة أو العدالة في مفهوم الثقافة العربية الإسلامية في كثير من الأحيان بصيغها وبتسمياتها العربية مثل: القاضي، والحق، أو «إِلمَانْ» و«أَلْمَامِ» بمعنى الإمام، والإمام الراتب أو النائب (نائب الإمام).

أسماء الأعلام:

يكفي أن تنزل في شارع إفريقي فتأخذ عينة ممثلة من الناس فتسألهم عن أسمائهم فيجيب أكثر من 85٪ تقريباً بأن أسماءهم أسماء عربية مثل: محمد، وعلي، وإبراهيم، وجبريل وزينب، وخديجة، وفاطمة[10] الخ... وكثيراً ما

---

(7) أنظر: غلادنثي، 1993، ص19.

(8) Diene Cheikh Tidiane, 1996, pp 45-80.

(9) أنظر: غلادنثي: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا ص60.

(10) الأسماء العربية في هذا المكان تعني الأسماء التي ورثتها هذه اللغات من الثقافة العربية وإن كانت هذه الأسماء أعجمية في الوضع.

نجد لدى سكان غرب إفريقيا إنساناً يحمل اسمين الأول اسم إفريقي (مثل صَمْبَّ، ودِمْبَّا)، والثاني اسم عربي يسمى بعبارة: «اسم الدفتر» بمعنى الاسم العربي الإسلامي. ونجد كذلك في كثير من الأحيان الأماكن تحمل أسماء عربية، وهذه الظاهرة منتشرة الآن أكثر من أي وقت مضى (مثل مدينة، عرفات، دار المنان، دار القدوس، وفاس الخ...).

لقد اقترضت اللغات الإفريقية كذلك كثيراً بعض مفاهيم الزمن بأسمائها العربية كمصطلح الزمن نفسه، وكذلك الوقت، والساعة، والمدة. وتنطق هذه الكلمات في اللغة الفولانية والولوفية بغرب إفريقيا، كما هي الحال بالعربية مع تحريف ما في النطق. والطريف أن بعض الاقتراضات من العربية جعلت الناس تنسى الأسماء الإفريقية المحلية لهذه المفاهيم. ونصور ذلك بهذا الجدول الخاص بأيام الأسبوع التي تستعمل كلها أو بعضها في كل من لغة الهوسا والولوفية والفولانية بغرب إفريقيا بتسمياتها العربية مع تحريف بسيط في النطق على النحو التالي:

العربية	الفولانية	الولوفية	الهواس
الاثنين	أَلْتِين	أَلْتِين	لِتْنِينْ
الثلاثاء	تَلَاتَ	تَلَاتَ	تَلاتَ
الأربعاء	أَلَرْبَ	أَلْرْبَ	لاَرْبَا
الخميس	الكَمِيسَ	الْخَمِسْ	الخَمِيس
الجمعة	الجُمَا	أَجُمَ	جُمُعَه
السبت	أَسِتْ		أَسْبَرْ
الأحد	أَلِتْ		لَحِدِ[11]

(11) أنظر غلادثي، 1993 ص60 وقال الحاج موسى، 1997، ص39، وكذلك:
Diene Cheikh Tidiane, 1996: pp 45-80.

هذا وقد تأثرت اللغات الإفريقية بالعربية فيما يسمى بـ«اقتراض كمالي» Emprunt de Luxe وهي اقتراضات يحلو للبعض استعمالها، وإن كان لها مقابل في اللغة المقترضة. وذلك مثل: تأخير، آخر الزمان، أستاذ، عورة، عالم، كل، فن، إلى يوم الدين الخ.... التي تستعمل كثيراً في اللغة الفولانية والولوفية في غرب إفريقيا.

موقف اللغات الإفريقية في الاقتراض من العربية

إن الاقتراض إذا سلمنا أنه عملية تكامل وتأثر وتأثير، أو أنه عملية أخذ ما تحتاجه اللغة المقترضة من كلمات تنقصها في تسمية بعض المفاهيم، دون أن ينوي رد القرض فهي إذاً ليست عملية سلبية. ولكنا إذا أمعنا النظر في الاقتراض بين اللغة العربية واللغات الإفريقية فسنجد أن اللغات القومية الإفريقية تدين بالكثير للغة العربية؛ لأن الاقتراض هنا عملية ذات اتجاه واحد تقريباً، فاللغة العربية هي الدائنة، أي: هي التي تقرض الكلمات التي لا توجد في اللغات الإفريقية، أو هي التي تقرض مفاهيم عربية أو إسلامية جديدة، تحتم على اللغات الإفريقية أن تجد لها كلمات أو مصطلحات، أو تعدل بعض الكلمات العربية الموجودة لمفاهيم جديدة.

فلا يستبعد ـ علمياً ـ أن تكون العربية قد اقترضت من اللغات الإفريقية بعض الكلمات، فهذه مسألة يصعب البت فيها في هذا المقام، ولكنا يمكن أن نؤكد جازمين بأن ذلك إن حدث، فقد كان محدوداً بأقل ما يمكن. وذلك أن علاقة اللغات القومية الإفريقية باللغة العربية، لم تكن علاقة تأثر وتأثير بالمعنى اللغوي أو العلمي للكلمة، بل إن التأثير الثقافي، كان ذا اتجاه واحد من العربية إلى اللغات الإفريقية بحكم عامل دين الإسلام، وبحكم العلاقات التجارية التي كانت تأتي من المنطقة العربية إلى إفريقيا جنوب الصحراء أكثر مما يحدث العكس. وقد اشتهرت في هذا المجال عدة طرق للقوافل التي كانت تأتي من مراكش وتلمسان وتونس وطرابلس الغرب ومصر. متجهة نحو الجنوب، فتجتاز الصحراء الكبرى وتصل إلى المراكز التجارية الرئيسية في غرب إفريقيا، مثل:

غانا القديمة وتمبكتو وولايات الهوسا وبورنو وغيرها. وقد كان التأثير اللغوي نتيجة طبيعية للتأثير الديني التجاري ذي الاتجاه الواحد[12].

فهل تكون عملية اقتراض اللغات الإفريقية من العربية عملية سلبية إذن؛ لأن اللغات الإفريقية تكاد تكون مَدِينَةً في كل الحالات وفي كل الميادين؟

وخلاصة القول في الرد على هذا التساؤل، هو أن الذين ساهموا في إدخال اللغة العربية في إفريقيا كانوا يرتكزون أساساً على العامل الديني، ولئن ساهمت التجارة في إدخال اللغة العربية في إفريقيا، فما هي إلا مرحلة قصيرة تُوِّجَتْ بوصول الإسلام. فقد انتشرت اللغة العربية في إفريقيا على نطاق واسع، بسبب العامل الديني ابتداءً من القرن التاسع أو العاشر الميلادي، وحتى نهاية القرن الثامن عشر كما أسلفنا. ونظراً لوازع العامل الديني الذي كان يقود هؤلاء، فلم يكونوا يرون عملية الاقتراض من العربية على أنه ظاهرة سلبية، بل إنهم كانوا يرون اقتراض اللغات القومية الإفريقية من العربية أو تعلم العربية ضرورة ملحة، على الرغم من كل الصعوبات والعراقيل التي كانوا يلاقونها، على أنها ضرورة أو فريضة تبعاً للظروف الجديدة. فلذلك تعلموا العربية ونشروها في البقاع الإفريقية، ومن ثم اقترضوا منها الكثير من الكلمات والمصطلحات تكاملاً مع العربية، وخاطبوا أتباعهم بالعربية في حلقات العلماء وفي خطب الجمعة والعيدين.

وليس معنى أن اللغة العربية كانت منتشرة في إفريقيا، وأن العلماء كانوا يخاطبون الأتباع بالعربية أنهم كانوا يتكلمونها كلُغَةٍ أُمٍّ، في كل المداولات اليومية، ولغة تخاطب فيما بينهم. فمساحة العربية في تلك الفترة كانت محدودة نوعاً ما في البداية، وكانت مقتصرة على النخبة من العلماء والمثقفين، وكانت لا تتجاوز حلقات العلم، أو حلقات الذكر، أو المناسبات الدينية، ولكنها كانت لغة الثقافة ولغة العلم ولغة الحكم والإدارة والاتصال بالجماهير جنباً إلى جنب مع اللغات القومية، وبذلك لم يكن بمقدور العربية أن تحتقر اللغات القومية؛

(12) أنظر غلادنثي، 1993، ص17.

لأنها كانت تكملها، وكانت حلقة الاتصال بين العربية والجماهير الإفريقية. وكانت تساعد على نشر العربية وتوطيد دعائمها حتى مجيء الاستعمار، ودخول اللغات الأوروبية هذه الساحة لتنافس العربية.

كانت العربية إذاً تعيش مع اللغات القومية في سلام ووئام، وفي حرية واحترام هذه اللغات القومية في التنوع والتعدد داخل الوحدة الواحدة.

علاقة الجوار بين اللغات الأوروبية واللغات الإفريقية

هذا هو الوضع الذي وجده الاستعمار الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء حينما اشتد وطؤه فيها. فوُجدت لغات أخرى ناقلة كالفرنسية والإنكليزية والإسبانية الخ. . . وبهذا اقتطعت هذه اللغات جزءاً من مساحة اللغة العربية، وكسبت أرضاً أخرى في أوساط أولئك الذين لم تكن العربية محور اهتمامهم، فنشأ مجتمع آخر جديد من النمط الغربي مع كل ما يصاحبه من فوارق اجتماعية وثقافية مع الفئات الأخرى؛ لأن الاستعمار كان في بدايته يركز على كسب ثقة بعض القبائل والفئات دون الأخرى، مما أجج نار القبلية في هذه المناطق. ولا تزال إفريقيا تعيش هذه الآثار إلى يومنا. بل إن العقد الأخير من هذا القرن، والأحداث الدموية التي تجري فيه لخير شاهد على ذلك. ولا يعني وصول اللغات الأوروبية إلى الساحة الإفريقية أن العربية تضاءلت أو تناقصت أهميتها في إفريقيا، بل لا يزال الكثير من الفئات الاجتماعية تستعمل هذه اللغة في الأوساط الشعبية والتقليدية كما كانت تستعمل منذ قرون مضت وحتى الآن، وذلك إلى جانب التعليم الرسمي في المدارس النظامية.

ومن الصعب إعطاء إحصاءات أو بيانات دقيقة في هذا الصدد ولكنه، من المسلم به أن اللغة الإنكليزية تأتي في المرتبة الأولى في إفريقيا من حيث عدد متكلميها، ومن حيث المرونة وسعة رقعة الاتصال التي تتميز بها هذه اللغة في العالم بصفة عامة، وفي إفريقيا بما في ذلك الدول العربية الإفريقية بصفة خاصة. وكما يقول الباحث بيير الكسندر Pierre Alexandre فإن الفرنسية والعربية تكادان تكونان متساويتين من حيث الأهمية، ومن حيث عدد الناطقين

بهما في إفريقيا، إلا أن اللغة الفرنسية تستعمل في الغالب بشكل رسمي، وفي مساحات موحدة في إفريقيا، بينما تستعمل العربية في الأوساط غير الرسمية، وفي مساحات متفرقة في إفريقيا، فهي تستعمل في دول ناطقة بالفرنسية، وفي أخرى ناطقة بالإنكليزية، أي: إنها مرتبطة ـ أينما وجدت في إفريقيا ـ بوجود الإسلام[13]. ولئن كانت العربية تستعمل في القارة الإفريقية في الدوائر غير الرسمية، وفي أماكن جغرافية متفرقة، فلها خاصية هامة تتميز بها في هذا المجال، ألا وهو السبب الداعي إلى استعمالها في إفريقيا. ويرجع السبب في استعمال العربية في كثير من ربوع البلاد، وبشكل أساسي، إلى العامل الديني الذي يعتبر العربية وعاءً وقالباً للدين الإسلامي الحنيف. ومعنى ذلك أن استعمال العربية في إفريقيا لا يتوقف على عوامل سياسية، أو قرارات أو أوضاع غير مستقرة يمكن أن تتغير بين عشية وضحاها، بل إن استعمال العربية ودواعي استعمالها يتوقفان على إرادة الشعوب والفئات التي تستعملها، والتي ترى عن صدق وإيمان واقتناع صحة الأسباب التي دعتها إلى ذلك، وهذا ما يفسر تنوع وتعدد جذورها في إفريقيا، وصلابتها في مختلف الفئات والطبقات الشعبية، أو في الفئات ذات الثقافة الغربية، أو العربية على حد سواء. وهذه ميزة يمكن أن يستغلها العلماء والمتخصصون في مجال العلوم والثقافة واللسانيات العربية.

الاحترام المتبادل بين اللغات الناقلة واللغات القومية

إن ما يعنينا هنا ليس الخوض في هذه العلاقة بين اللغات الإفريقية واللغات الأوروبية وتخصيص بحث آخر لذلك فهذا المجال سيتحدث عنه متخصصون آخرون، ولكن ما يهمنا في هذه العجالة هو أن نشير إلى ما ألمحنا إليه من أنه نظراً لوازع العامل الديني فإن الأفارقة الذين ساهموا في إدخال العربية في بلدانهم، لم يكونوا يرون الاقتراض من هذه اللغة أو تعلمها عملية سلبية، بل إنهم كانوا يرون ذلك ضرورة وتكاملاً بين العربية واللغات الإفريقية تبعاً للظروف الجديدة. وهذا نابع من أنه لم يكن بوسع الأفارقة احتقار لغاتهم القومية مع

(13) Voir Pierre Alexandre 1979: pp: 20-28.

تبنيهم العربية لغة للدين والحكم والعلم والثقافة والاتصال. وهذا الوضع هو الذي خلق التآزر والتضامن والتكامل بين العربية وغيرها من اللغات الإفريقية، حيث تمكنت هذه اللغات من أن تعيش في جو سلمي، وفي احترام متبادل، دون أن تحتقر اللغةُ السائدة اللغات القومية الأقل انتشاراً وقوة.

وفي نظرنا أنه في هذا الوقت الذي نتحدث فيه عن مستقبل إفريقيا في القرن القادم لا بد من أن نفترض الحلول لكل المشاكل الإفريقية بشتى أنواعها. فالتحديات التي تواجه إفريقيا كثيرة جداً، لكن تحتم ظروف القرن القادم أن يكون التحدي الأكبر اقتصادياً، قبل أن يكون سياسياً، أو غير ذلك. ومع هذا فمسألة تعدد اللغات في إفريقيا جزء لا يتجزأ من التحديات التي تواجه هذه القارة كمسألة الاندماج، أو الاتحاد على المستوى الإقليمي أولاً ثم على مستوى القارة، ثانياً، لا بد للغة أن تلعب دوراً أساسياً في هذه المسألة؛ لأنها أي اللغة هي أداة التواصل التي لا غنى عنها.

وقد كان اقتناع «شيخ أنتا جوب» بأن بناء مستقبل إفريقيا لا يمكن أن يتم إلا بأيدي أبناء إفريقيا أنفسهم، وأن رجال ونساء إفريقيا المتزودين بالثقافة والعلم هم فقط الذين يمكن لهم أن يبنوا إفريقيا مع الوعي والإبداع[14]. وكان يؤمن كذلك بأنه لا بد من اختيار بعض اللغات الإفريقية الناقلة التي يفهمها الإفريقيون أنفسهم، وجعلها لغات للحكم والإدارة والثقافة على المستوى الإقليمي أولاً، ثم على مستوى القارة ثانياً؛ لأنه لا يمكن لإفريقيا أن تتطور تطوراً حقيقياً ما دام أبناؤها يحكمون بلغات تجهلها الغالبية العظمى من الشعوب التي لا تعرف معنى الديمقراطية Démocratie، والعدالة الاجتماعية La justice Sociale، والاشتراكية Socialisme، لأنها مفاهيم تُعبر بلغات تجهلها ثقافتهم الأصلية، ولا بد أن يخاطبوا بلغة ثقافات يفهمونها. حينئذ فقط يمكن أن نكسر الحواجز اللغوية التي تفصل بين المثقفين بالثقافات الغربية والمستعربين، أو بين أولئك وهؤلاء وبين من يعتبر أُمِّيًّا بحجة أنه لا يعرف إلا اللغات القومية، ويجهل

(14) Voir le Combat politique de Cheikh Anta Diop 1999: pp: 71-77.

اللغات الغربية، حتى يتحول الجميع إلى عناصر فعالة تساهم في تنمية إفريقيا. وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن التنمية الاقتصادية يصعب تحقيقها لدى مجتمع يستعمل لغة غيره. فتقدم أوربا لم يتم في القرون الوسطى إلا بعد ترجمة الإنجيل من اللاتينية في القرن السادس عشر، إلى اللاتينية العامية، أو إلى اللغات التي تفهمها الشعوب[15]. وذلك لأن هناك علاقة طردية ومعادلة الصلة في الرفعة والانحطاط بين اللغة أو اللغات، وبين الأمة أو الأمم التي تتكلم هذه اللغة أو اللغات. ذلك أن اللغة عنوان الأمة، ومرآة رقيها وانحطاطها، فكلّما ارتفع شأن أمة ما ـ اقتصادياً ـ ارتفعت لغتها وثقافتها، وتحيا أو تموت اللغة بموت الأمة طبعاً لقوة أو ضعف اقتصاد وسياسة هذه الأمة، وكل ذلك مرتهن بوعي قادة تلك الأمة، أو عدم وعيهم للظروف التي يعيشون فيها وقدرتهم على التأثير فيها.

ما هي لغة أو لغات إفريقيا غداً؟

إذا استعرضنا وضع التعدد اللغوي في إفريقيا، وجدنا أن المصير قد جعل اللغة العربية لغة لست دول عربية تقع جغرافياً في إفريقيا وهي مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، وأن الفرنسية تستعمل على نطاق واسع في الدول الأربع الأخيرة. أما فيما يعرف بإفريقيا السوداء فالوضع أعقد من هذا بكثير.

تتميز الدول الشرقية في إفريقيا السوداء بالتجانس اللغوي إلى حد ما، حيث تهيمن لغات ثلاث على الساحة وهي: اللغة الصومالية، ثم اللغة المالجاشية، واللغة السواحلية التي تدخل في دائرتها لغة جزر القمر، وجزر المايوت الفرنسية. وهذا لا يمنع وجود لغات قومية تستعمل في أضيق نطاق. أما الدول الواقعة في غرب إفريقيا فتتميز بتنوع وتعدد اللغات المستعملة إلى حد يصعب حصرها تقريباً، فإذا استثنينا اللغة الفولانية التي تستعمل في جميع دول إفريقيا الغربية تقريباً، ولغة الهوسا واليوروبا والماندنكي التي تشترك في

---

(15) Idem.

استعمالها عدة مجموعات عرقية أو عدة دول إفريقية، فإن بعض اللغات لا يتجاوز استعمالها نطاق بلد معين، أو قبيلة معينة وبشكل محدود. وفي كل هذا وذاك نجد هناك اللغة العربية، والإنكليزية والفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية إلى جانب هذه اللغات تبعاً للمناطق التي قل أو كثر فيها نفوذ استعمار بلد ما. ولا ينبغي أن تدخل إفريقيا عتبة القرن القادم دون أن تفكر ملياً في هذا الوضع. ولهذا فإن أية فكرة للاندماج الإفريقي، إما على مستوى القارة أو على المستوى الإقليمي، يجب ألا تقلل من شأن الاندماج اللغوي، ومحاولة إقامة مجموعات يكون الهدف من ورائها هو العمل على وضع برامج علمية وعملية واعية للتجانس اللغوي. وعليه فقد آن الأوان أن تشكل لجان من الخبراء المتخصصين والباحثين في علوم اللغات الإفريقية بالتعاون مع المتخصصين الذين يعملون في حقول العلوم والثقافة والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع، في كل البلاد الإفريقية، وخاصة الواقعة جنوب الصحراء منها؛ لكي تختار لغة أو بعض اللغات الواسعة الانتشار لتساعد على اندماج وتوحيد إفريقيا الغد. ويجب اختيار هذه اللغة أو هذه اللغات ديمقراطياً، وبطرق علمية؛ حتى يمكن فرض تدريسها على أكبر عدد ممكن من البلاد، حسب خطط التنمية التي تهدف إليها إفريقيا.

وعلى هذا الأساس فإن إفريقيا يجب أن تقدم ضمانات كافية في هذا الصدد. ويجب أن تحترم الأغلبيةُ الأقليات، وتقبل اندماجها فيها، وتحترم لغاتها وثقافاتها. أو بمعنى آخر، يجب أن تحترم اللغات الكبرى الناقلة لغات الأقليات، وألا تعمل من أجل انقراض هذه اللغات؛ لأن انقراض لغة ما يعني اندثار الثقافة التي تعبر عنها هذه اللغة. وبعبارة واحدة يجب على اللغات الناقلة أن تقدم ضمانات ديمقراطية، بأنها إذا تمكنت من أن تلعب دورها وهي لغة ناقلة ولغة اتصال كبيرة فإنها تستطيع كذلك أن تعيش مع هذه اللغات في سلام ووئام، وفي تناغم وتجانس وتنوع وتعدد داخل وحدة واحدة على غرار ما حدث للغة العربية مع القومية الإفريقية.

المصادر والمراجع

- امباكي، خادم: اللغة العربية في السنغال، محاضرة في الأسبوع الثقافي الكويتي السنغالي ـ دكار، 1982.
- (البكري)، أبو عبيد الله بن عبد العزيز، المسالك والممالك، طبعة الجزائر (د. ت).
- جين، شيخ تجان: الاستعارات اللفظية للألوفية من اللغة العربية: بحث رسالة الأستاذية كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة شيخ أنتا جوب، دكار ـ السنغال 1996.
- غلادنثي، شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، المكتبة الإفريقية، الطبعة الثانية، العبيكان للطباعة والنشر، الرياض 1414هـ/ 1993.
- فال، الحاج موسى: التعليم العربي الرسمي في السنغال من سنة 1960 إلى 1995، بحث رسالة الأستاذية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شيخ أنتا جوب دكار ـ السنغال، 1997.
- وقائع ندوة تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، الجزآن الثاني والثالث، مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض 1406هـ ـ 1985م.
- مرجع خاص:

القرآن الكريم مع ترجمة معانيه بالفرنسية، ترجمة محمد حميد الله، الطبعة الثانية عشرة (دار النور) Maison d'Ennour، 1406هـ/ 1986م.

- **ALEXANDRE pierre:** Langue arabe et langues africaines, in Sociétés africaines, monde arabe et culture islamique, Université de la Sorbonne Nouvelle Paris III, Institut National des langues et civilisations orientales, Mémoires du CERMAA No 1, 1979/ Fas 20-28.
- **BA Oumar, Glossaire des mot étrangers passés en pulaar du Fouta Tooro,** Dakar, C.L.A.D, 1992.
- **DIOUF, Makhtar:** Sénégal les éthnies et la nation, ed nouvelles éditions africaines du sénégal, Dakar, 1998.

- **KANE Oumar,** le Futa Tooro des Satigui aux Almami (1512-1807) Thèse du doctorat d'état, U.C.A.D, Dakar, 1996.
- **WALTER Henriette:** l'aventure des mots Français venus d'ailleurs, édition Robert Laffont, Paris 1997.
- **Ouvrages Collectifs:**
- **Combat Politique (Le), de Cheikh Anta DIOP, in** Commission des Historiens du Rassemblement National démocratique, presses de l'imprimerie du midi, Dakar - 1999.
- **Des langues et des villes,** Actes du Colloque international du CERPL, Diffusion Didier Erudition, (Paris V et CLAD Dakar, 1990).
- **Emprunts (Les),** in collection plurilinguisme, Centre d'Etude et de Recherche en Planification Linguistique, No 09 et 10, Juin - Décembre, Paris, 1995.
- **Langue de Diaspora:** in Collection plurilinguisme, No 7, Centre d'Etude et de Recherche en Planification Linguistique, Paris, Juin 1994.